قرطبـــة ودورها في الحركة العلمية والفكرية في الأندلس حتى القرنين (7 – 8) الهجريين / (13 – 14) الميلاديين .

د. أبوبكر بشير سالم عبدالحفيظ ـ كلية التربية ـ جامعة الزنتان

المقدمـــــــــة:

من المفيد قوله أن الدين الإسلامي منذ بداية الدعـــوة وحتى يومنا هذا، قد أولى أهميته بالعلم والتعلم حين خاطب الله - جل جلاله-نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم- في أول آية في كتابه العزيز بعد : (**بسم الله الرحمن الرحيم اقـــرَأ بِاسمِ رَبِّكَ اَلذِى خَلَقَ**) [1] ، وقوله تعالى -: (**قُلْ هَلْ يَسْـــتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)** [2] ، وقوله- تعالـــى-:(**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**) [3] ، وهـــي تحث على العلم والتعلم بكافة أنواعه وفروعه لما للعلم من دور في الإيمان والدّين القويم المستقيم وعبادة الواحد الأحد الصمد ، والتقدّم والرقي والحضارة وحياة العز والفخر والتضامن والتآلف والمحبة والألفة ، وكانت من أولويات الإسلام في فترة الفتوح ، مرافقة العلماء لجيوش الفتح لنشر الدّين الإسلامي وتعاليمه السمحة .

وانتشر الإسلام شرقا إلى السند والهند وتجاوزهما وغربا إلى المغرب ووصل إلى الأندلس وإلى جبال البرانس الحد الفاصل بين إسبانيا وبلاد الغال (فرنسا حالياً)، وازدهرت الحضارة الإسلامية ، ومن بين تلك المدن التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية قرطبة

مشكلة الدراسة :

الوقت الحالي يشـــهد العالم الإسلامي حرباً تشنها وسائل الإعلام الصهيوني والغربي على ديننا الإسلامي وصلت إلى المطالبة بتغيير بعض الآيات القرآنية وطمس هويتنا العربية والإسلامية ، والتقليل من تأثيرنا الوجودي في هذا العالم ، وأصبح حتماً علينا استعادة تاريخ هذه الأمة وأمجادها ، فقد وصلت إلى قلب أوروبا بحضارتها التي ماتزال شواهدها في إسبانيا ماثلة إلى اليوم

تساؤلات الدراسة :

ـ هل فعلاً كانت قرطبة حاضرة العلم الإسلامي وكيف ؟ و ماهي العوامل التي كانت وراء قيام النهضة العلمية والفكرية بقرطبة ؟ ومن الشخصيات العلمية والفكرية التي كانت شعلة الحضارة في الأندلس ؟ وما المؤسسات العلمية والتعليمية والثقافية التي قامت هنالك؟ وكيف جسّد المسجد الكبير بقرطبة دوره الثقافي والتعليمي؟

أهـــداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى :

1ـ التعريف بالفتوح الإسلامية للمشككين وإلى أي مدى وصلت جحافل الفاتحين.

2ـ الإشارة والتنبيه من جديد للأجيال الحديثة إلى التاريخ المشرّف للإسلام .

3ـ دراسة تاريخ قرطبة ونهضتها العلمية والفكرية ومن كان وراء ذلك؟

أهمية الدراســـة :

تأصيل الأمجاد الإسلامية ، وتحفيز الأجيال الحاضرة وإشعارهم بالاعتزاز بتاريخهم المشرّف ، وأخذ العبر والدروس من الماضي ، وتوجيه الأجيال للتعمّق في الدراسة والبحث في تاريخهم الإسلامي .

منهج الدراســـــة :

حاولت في هذا البحث اتباع طريقة الســرد التاريخي والتحليل القائم على الربط المنطقي بين الوقائع التاريخية والأسباب والنتائج .

تقسيمات الدراســـــة :

تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث وهي :

المبحث الأول : قرطبة الحاضرة الإسلامية ، والمبحث الثاني : النهضة العلمية والفكرية بقرطبة الإسلامية ، والمبحث الثالث : المؤسسات العلمية والتعليمية والثقافية بقرطبة الإسلامية.

المبحث الأول ـ قرطبـــــة حاضـــــرة الإسلام في الأندلس:

قاعدة الأندلس وأُم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين ، اشتهر أهلها بصحة المذهب

وطيب المكسب وعلو الهمة وجميل الأخلاق [4] ، وذُكِر أن تفسير قرطبة بلسان القوط – قرظبة بالظاد المعجمة – ومعنى ذلك بلسانهم : القلوب المختلفة[5] ، وعدد أبواب قرطبة سبعة أبواب حسب قول ابن بشـكوال : باب القنطرة وهو بقبليها ومنه يُعبّر النهر على القنطرة ، ويعـرف بباب الوادي ، وباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر، وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة ، وباب ابن عبدالجبار وهو باب طليطلة ، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة ماردة في الأرض الكبيرة ، ثم باب طلبيرة وهو بابليون ، ثم باب عامر القرشي وأمامه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الجـوز ويعرف بباب بطليوس ، ثم باب العطارين وهو باب إشبيلية [6] ، وقصر مدينة قرطبة غربيها ، وجامعها شرق القصر، يسلك بينهما طريق يسمى المحجة العظمى [7] .

تقع قرطبة على سفح جبال سيرامورينا ، وتحتل سهلاً فسيحاً يقع بين هذه الجبال والـوادي الكبير ، وهي حاضرة الدولة الإسلامية ، ومركز العلم ومنار التقى ، ومحل التعظيم والتقديم ، بها استقر ملوك الفتح وعظماؤها، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها، ويرفعون أقدار العلماء والأدباء حتى غدت مركز إشعاع حضاري وثقافي في أوروبا ، وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التميز[8] ؛ فالذي لم يوفق في العلم يبحث عن صنعة يتميز بها كي لا يبقى عالة على غيره من الأقارب [9] ، وكانوا لا يقدمون وزيراً أو مستشاراً ما لم يكن عالماً ، ونقل المراكشـي [10] عن ابن الفياض في أخبار قرطبة ، أن الربض الشرقي منها قد ضم مائة وسبعين امرأة ، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، كما احتـوت ثلاثة آلاف مقلّس(لابس قلنوسة) ؛ والقلنسوة [11] تعني : رمز من رموز أهل العلم والمشتغلين به ، وكان لا يجعل القالص على رأسه إلاّ من حفظ الموطأ ، وقيل : من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وحفظ المدونة [12] ، وزيد للمفتي إلى جانب ذلك الرداء ، وقال ابن سعيد: لأهلها رياسة ووقار ، لاتزال سمة العلم متوراثة فيهم [13] ، وقال بعض العلماء: أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس، وقُطْبُها، وقُطْرُها الأعظم ، وأُمُّ مدائنها ومستقرّ الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والإسلام ، ومدينة العلم ، ومستقر السنة والجماعة ، نزلها جملة من التابعين وتابعي التابعين[14] ، قال أبو فضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبوبكر بن زُهـرْ،

فقال ابن رشد لابن زهـــر في تفضيل قرطبة : "ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأُريد بَيْعُ كتبه حُمِلتْ إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطربٌ بقرطبة فأُريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية ، قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً "[15] وإن المار كان يستضئ بأضياء قرطبة لمدة ثلاثة فراسخ ، كما كانت بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، وقرطاها مدينتي الزهراء والزاهرة ، حاضرتا الملك وأفقاه ، وقال السلطان يعقوب المنصور لأحد رؤساء أجناده: ماذا تقول في قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلامُ عامّة الأندلس بقوله: جَوْفُها شِمام ،وغربيها قُمام، وقبلتها مُدام، والجنة هي والسلام [16] واشتهرت قرطبة بكثرة خيراتها من معدنية وزراعية [17] ، وساعد ذلك إلى جانب نشاطها التجاري على تطـور عمرانها ، وطابعها الحضاري ، انعكست تلك المناشط على تطــوّر العلوم والآداب بها ، إلى جانب الحضارة المادية نتيجة التبادل التجاري، والتواصل الثقافي ، وقد ترجم ابن سعيد [18] لأكثر من مائة وسبعٌ وخمسون شخصية علمية وأدبية ، وسياسية وغيرها.

ومما اشتهرت به قرطبة في الجانب المعماري الجامع الأعظم [19] الذي كان طوله مائة وثمانون دراعاً وعرضه مائة وخمسة دراعاً ، وبه مائة وثلاث عشرة ثريا وهي من نواقيس الصليب على حد قول المقري [20] إلى جانب مدينة الزهراء والزاهرة وأن المباني بها فقد امتدت عشرة أميال وكان يمشى فيها بضوء السُرُج [21] ، وفي مدح قرطبة واشتهارها بالعلوم – يقول الشاعر ابن سارة :

الحمد لله قد وافيت قرطبة دار العلوم وكرسي السلاطين [22]

وهي مجمع جيوش الإسلام ، ومنها نصرهم الله على عبدة الصليب على حد قول المقري التلمساني [23] ، وخلق التمازج بين المعادن وتنوعها وكثرة وتنوع المحاصيل الزراعية التي غلبت عليها شجرة الزيتون وهي من أشجار البحر الأبيض المتوسط ، ووفرة الأنهار ومن بينهم النهر العظيم بقرطبة والذي أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بإقامة جسر عليه لم يعرف مثله آنذاك ، وفي ذلك يقول أبي محمد بن عطية :

بأربَعٍ فاقَتِ الأمصارَ قُرْطُبَةٌ منهنَّ قنطرةُ الوادي ، وجامعها

هاتانِ ثنتان، والزهراء ثالثة والعلمُ أعظمُ شيء، وَهْو رابعها[24]

وفي مدح قرطبة كتب الرئيس أبوبكر بن القبطرنة [25] للعالم أبي الحسين بن سراج[26] بقوله:

يا سيدِي وأبي هَوَى وجَلاَلةً ورَسُلَ وُدِّي إن طَلَبْتُ رسولا

عَرِّجْ بقرطبةٍ إذا بُلِّغْتَهَا بأبي الحسين ونادِهِ تمويلا

وإذا سَعِدْت بنظرةٍ من وجْهشهِ أهْدِ السلاَم لِكَفِّه تَقْبيلا [27]

وقال الحجازي في ـ المُسْهب- : كانت قرطبة في الدولة المرينية قبّة الإسلام ،

ومجمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمخَّضَتْ خلاصة القبائل المعدّية واليمانية [28] ، واكب ذلك نشاط صناعي وتجاري ، شمل منتجات المدن الأندلسية ، مثل : أقمشة المرية [29] ، وأنسجة كاتدرائية لا ردة ، وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى ، وذلك في نهاية القرن السادس وفي القرن السابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، كما كان لعامل التجارة دورٌ كبيرٌ في الاحتكاك، والتّواصل بين المسلمين والنصارى ، فإذا كان عدد الفنادق في مدينة المرية وحدها تسع مائة وسبعين [30] (970) فندقاً خلال العام (542هـ /1147م) ، وقد احتضنت الكثير من التجار من أهل الأندلس ومن المشرق الإسلامي ، ومن بلاد النصارى ، فإن ذلك خير ذليل على ضخامة التبادل التجاري وتنقلاته، ولم تكن بلدان شمال الأندلس على صلة بجنوبها فحسب [31] ؛ بل كانت على صلة دائمة ببلدان أوروبا سياسياً وتجارياً، ولم تمنع جبال البرانس تلك الصلات والتبادل التجاري والثقافي والحضاري وتأثير الحضارة الإسلامية الأندلسية في الغرب عبر تلك الممرات في جبال البرنس، أو كما يقال لها أحياناً جبال البرت أو البرتات .

وقد داع اسم قرطبة في العصور الوسطى وأصبحت تقرن في عظمتها بالقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، وبلغت قرطبة أوج ازدهارها ، وقمة ريادتها منذ عهد عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، خاصة وأن الأول اتخذها عاصمة لدولته الفتية ،ومقراً له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وقد جعل منها منبراً للثقافة والعلوم والمدنية ، وخّرجت قرطبة لأوروبا والعالم جمعاً من العلماء في كافة مجالات العلوم ، مثل عباس بن فرناس ، وابن حزم الظاهـــري ، وابن رشد، والزهراوي، والإدريسي، والقرطبي، ومنها انتقل العلم إلى الدول الأوربية من حولها[32] ، وهي مدينة

قديمة البناء وليس من المستبعد أن تكون أيبيرية الأصل بدليل التماثيل البرنزية التي كشفت خلال البحث الأثري الذي أُقيم في أرضها ، وأصلها الأيبيري اسمها كردويا الذي عــرّبه المسلمون إلى قرطبة ، وزادت حظوتها منذ أن اتخذها عبدالرحمن الداخل حاضرة له ولأولاده من بعده (33)، وأصبحت في عهده مهد الحياة الرغدة، ومصدر الحضارة السامية ، وموطن الفلاسفة والشعراء والفنون والآداب ، كما كانت أكثر المدن الأوربية سكاناً وعمراناً وتطوراً.

وداعت شهرتها منذ بدء الصراع بينها وبين روما عندما اصطحب هانيبال معه نفراً من أهل قرطبة في حملته على روماعام206 ق. م عندما استولى عليها القنصل الروماني(34)

ولو تناولنا تاريخ قرطبة منذ قيام الإمارة الأموية في الأندلس ، سنجد بأن تاريخها الحقيقي قد بدأ منذ عهد السمح بن مالك الخولاني عام 100هـ / 718م ، فهو الذي أولاها اهتماما خاصا ، فأعاد بناء الســور الروماني المحيط بها وقد تصدع بعض أركانه، وأصبحت مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها(35).

كانت قرطبة زمن القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، تنقسم إلى جانب شرقي يعرف بالشرقية وجانب غربي ، وتشمل المدينة إلى جانب المسجد الجامع وقصر الإمارة، وهي أعظم مدن الأندلس حيث بلغت عدة مساجدها ألفاً وستمائة مسجد والقيسارية والفنادق والحمامات التي بلغت التي بلغت تسعمائة حمام (36) والأسواق ، وبتلك المكونات أصبحت مركزاً للحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، كما قسمت إلى أحياء كانت تعرف آنذاك بالحومات التي منها حومة العطارين وحومة النجارين وحومة باب الفرج وحومة عين فرقد شرقي قرطبة ، كما كان عدد أبوابها سبعة أبواب ، وكانت مدينة حصينة نتيجة للسور المحاط (37) بها.

بلغت قرطبة درجة كبيرة من الرخاء والثراء لم تبلغه أي حاضرة من قبل ، وتبارى مؤرخو العرب وجغرافيهم في وصفها أبدع وصف وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس ، فلما ولي عبدالرحمن الناصر حُكم بلاد الأندلس كانت قرطبة حاضرتها، وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ، ولم يتفـوّق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد ، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها، فقال بعضهم :

دَعْ عنك حَضْرة بغدادٍ وبَهْجَتَها ولا تُعظِّم بلادَ الفرسِ والصِّينِ

فما على الأرض قُطْرٌ مِثْل قُرْطُبة وما مَشَى فَوْقَها مِثْلُ ابنِ حَمْدينِ.(38)

كذلك بلغت شهرة قُرطبة أهالي جرمانية الذين أطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اسم (جوهرة العالم) (39)

- بناء مدينـــــة الزهـــراء : أما مدينة الزهــراء فلم تقل روعة وبهاءً عن قرطبة وقد ذكر المقري في سبب بناء الزهراء : " أنّ الناصر ماتت له سرية(مملوكة) ، وتركت مالاً كثيراً، فأمر أن يفكَّ بذلك المال أَسْرَى المسلمين ، وطلب من بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله- تعالى - على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء – وكان يُحِبَّها حبا شديداً - : اشتهيتُ لو بنيت لي به مدينة تسمِّيها باسمي ، وتكون خاصة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل "(40) وسماها الزهراء ، فبدأ الناصر في بناء مدينة الزهراء حسب قول ابن حيان : أول محرم عام 325هـ /936م ، وجعل طولها من الشـــرق إلى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة دراع ، وعدد الســـواري فيها أربعة آلاف وثلاثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ، وكان الناصر ينفق ثلث جباية البلاد على الزهراء(41) ، وكان يمنح على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية ، والمُجَـــزَّع من رَيّةَ ، والوردي والأخضر من إفريقية من سفاقس ، والحوض المنقوش من الشام (42)، وعندما يقال أن بنائها كان في غاية البهاء والحسن ، فإن وصفها كما درسناه في المصادر التاريخية يؤكد ذلك ،فقيل اثنى عشر تمثالاً مرصعة بالذهب والرخام ، إلى جانب أن قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وفي وسط ذاك المجلس صهريج مملؤ بالزئبق ، كما كان بجانب المجلس ثمانية أبواب من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر والرخام الملوّن والبلّور الصافي ، وكانت الشمس تشرق على تلك الأبواب فتعكس شعاعها على صدر المجلس ، وعند تحريك الزئبق يظهر في المجلس لمعا كلمعان البرق حتى يخيل لكل من في المجلس وكأنه يطير بهم ،حتى قيل أن ذاك المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام ، هذا إلى جانب الحدائق والبساتين التي كان أهل الأندلس شديدي الولوع بها، وفيها يقول الشاعر السميسر(43):

وَقَفْتُ بالزهراء مُسْتعْبِراً مُعْتَبِراً أندُبُ أشْتَاتا

فقلت : يازَهْرَا ،أَلاَ فارْجِعِي قالت : وهل يَرْجعُ مَنْ ماتا ؟

فلم أزل أَبْكِي وأُبْكِي بها هيهاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيهاتا

كأنمَا آثارُ مَنْ قد مَضَى نوادِبٌ يَنْدُبْنَ أَمْواتا (44)

يروى أن المنذر بن سعيد قاضي العاصمة دخل على الخليفة الناصر ذات يوم فوجده منهمكاً مع المهندسين في تخطيط الزهراء ، فوعظه المنذر بأن هذا ليس من صميم الحكم ، فأنشد الناصر للمنذر :

هِممُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرها مِنْ بعدهم فبألسُنِ البنيانِ

أَو ما ترى الهرميْنَ قد بقياوكمْ مَلكٍ محتهُ حوادثُ الأزمانِ

إنَّ البناءَ إذا تعارضَ شأنُه أضحى يدُّل على عظيمِ الشأنِ

وكان الناصر يريد من ذلك ذكر مجده للأحقاب القادمة تشبهاً ببناة الأهرام (45) ، وردّ المنذر بن سعيد على هذه الأبيات بقوله :

يا باني الزهراء مسغرقا أوقاته فيهاأما تمهل

لله ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتها تذبل(46)

ـ بناء مدينة الزّاهـــــــرة : هذه المدينة أمر المنصور بن أبي عامر ببنائها عام ثمانٍ وستين وثلاثمائة ، فقد خاف على نفسه بعد ما استفحل أمره من الدخول في قصر السلطان ، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصرٍ ينزل فيه بأهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ويدبر فيه سياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة ، فأقامها على نهر قرطبة الأعظم على طرف البلاد، وجلب إليها الصنّاع ، وتوسع في اختطاطها، وبالغ في رفع أسوارها، وتم بناء معظمها في عامين (47) ، وفي عام سبعين وثلاثمائة انتقل إليها المنصور إلى مدينته الزّاهـــرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، ثم اقطع ما حوله لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه ، فبنوا بها الدور والقصور واتخذوا خلالها الأرباض ، وقامت بها الأسواق ،ونزل الناس بأرباضها التي اتصلت بأرباض قرطبة (48) ، ويقول المقري : " واشتد مُلكُ محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزّاهرة ، وتوسع

مع الأيام في تشييد أبنيتها حتى كملت أحسن كمال ، وجاءته في نهاية الجمال ، تفاوت بناء وسعة فناء ،...ونضرة بستان ، وبهجة للنفوس فيها افتنان"(49) ، وفيها يقول صاعد اللغوي :

يا أيُّها المَلِكُ المَنْصُورُ مِنْ يَمَنٍ والمُبْتني نَسباً غَيْرَ الذي انْتَسَبا

بغَزْوةٍ في قُلوبِ الشِّركِ رائعةٍ بين المنايا تناغي السُّمْر والقُضُبا

أماتَرَى العَينَ تجري فوق مَرْمَرِها زَهْواً فتُخري على أحفافها الطَّرَبا

تحُفُّها من فُنون الأيكِ زاهرةٌ قد أورَقَتْ فِضّةً إذا أورقتْ

إلى أن يقول :

لا يُحسِنُ الدّهْرُ أنْ يُنْشي لها مَثَلاً ولو تَعَنَّتَ فيها نَفْسَهُ طَلَبَا(50)

المبحث الثاني ـ النهضة العلمية والفكرية بقرطبة:

قرطبة حاضرة الأندلس ، ومركز العلم ، ومحل التعظيم ، وقد رفع ملوكها من قدر العلماء والأدباء ، حتى غدت مركز إشعاع حضاري في أوربا(51) ، وقبل الخوض في تلك العلوم سنسرد بعض الشخصيات العلمية بقرطبة ومنهم :

1ـ أبوجعفر أحمد بن يحي الحميدي الورغـــي ، خطيب جامع قرطبة ، برع في النحو والأدب (ت 610 هـــ / 1214م) ، وهو الذي قال:

تبدلتُ من عيسى بحبِّ محمدٍ هُدِ يتُ ولولا الله ما كنت أهتدي

وما عن ملالٍ كان ذاك وإنما شريعةُ عيسى عُطِّلَتْ بمحمدِ(52).

2ـ أبو الحسن علي بن يوسف بن خروف من الشعراء الذين اشتهروا في الشرق والغرب ، وكان تاريخ وفاته محل خلاف بين المؤرخين فقد قيل العام (602 هـــ و605 هـــ و 610 هـــ /1214م) ، ومن بين أشعاره في مدح ملك سبتة إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن قوله :

خُذْها إليك عـرُساً لاَ كفَاءَ لَهَا تزيدُ جدَّتُها مادَامضتِ الحِقَبُ

عذراءُ أَخجلها مافيك من عِظَمٍ حتى لكادتْ من العلياءتَنْتَقِبُ

إن لم تكنأَحْرَزَتْ من ربِّها حَسَبا فإنَّ مدحك في أثنائها حَسَبُ[53] .

3ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن راشد ، وهو من أهل قرطبة ، وكان راوية عن أبيه وجده وابن بشكوال وغيرهم، وقد تولى مهنة القضاء (ت 622هـ /1225 م)[54] .

4ـ أبوالقاسم عامر بن هشام، وهو صاحب القصيدة التي تميزت بمنتهى الروعة والجودة في قرطبة (ت 623هـ 1226 م) ومن نثره قوله : " وإني لك الأرض الكريمة إن نُظِرَ منها وسُقِيَتْ أنْبَتَتْ وأَزْهرتْ ، وأوْدعَتْ لسانَ النَّسِيم، ما يعَّبر به في الآفاق من شكر الخَيْر الجَسِيم ، وإن أُهْمِلتْ صَوَّحَتْ وأوْدَعَت السّوافىَ مايُعْمى العَيْنَ ، ويُرْغِم الأنف ، وإنَّ لسيدي كبيرَ حَقٍ ، ورَعْيُ أَحدهما مَنُوطٌ بالآخر"[55] .

5ـ أحمـد بن يزيد بن عبدالرحمن بن بقي ، وهو كذلك من أهل قرطبة ورجالات العلم بالأندلس ، وقد أخذ عن الكثير من العلماء والأدباء مثل ابن بشكوال ، وأبي خالد المرواني ، وأبي العباس بن اليتيم وغيرهم ، واشتغل بالقضاء بمراكش ثم تقلد قضاء بلده قرطبة (ت 625 هـ / 1228 م)[56] .

6ـ إبراهيم بن عبدالرحمن بن زاهر الأنصاري من أهل قرطبة ، سمع من العديد من المشايخ مثل : أبو عبدالله بن حفصي، ومن ابنه أبي الحسن ،وجماعة من المتأخرين ، وعني بالرواية قديماً وحديثاً ، حج وحضر مجالس الحديث في الحرمين الشريفين (ت 625 هـ / 1228م)[57] .

7ـ إبراهيم بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي / من أهل قرطبة ، أخذ العربية عن أبي ذر الخشني، وروى عنه ، وعن أبي القاسم بن بقي ، وأبي الحسن بن حفص ، وأخيه أبي عبدالله بن أصبغ وغيرهم، وولى قضاء دانية، كان محققاً باللغة العربية ، وله تأليف في مسائل الخلاف بين النحويين ، كما كان أديباً ينظم الشعر (ت627 هـ /1229م)[58]

8ـ أبويحيى أبوبكر بن هشام / وكان يسمى شيخ كتّاب الأندلس ، وكانت له كتابات عن المأمون من بني عبد المؤمن ، توفي بالجزيرة الخضراء (ت 640 هـ /1242م) ، ومن أشعاره يقول عن نفسه :

لاموا على حُبِّ الصِّبا والكاسِ لما بَدَا وضَحُ المشيبِ برَاسي

والغُصْنُ أَحْوَجُ مايكون لسَقْيِه أَيان يبدو بالأَزاهر كاسي

وقولـــــــه :

أَمْسَى الفراشُ يطوفُ حَولَ كُؤُوسنَا إذ خَالَها تَحْتَ الدُّجَى قِنْديلا

مازال يحفقُ حولها بجناحهِ حتى رَمَتْه على الفِراشِ قَتِيلا (59).

9- أبوعبدالله محمد بن الصفار الأعمى القرطبي / قرطبي من بني الصفار ، وهو بيت علم عظيم ، وكان سليط اللسان في الأعراض رغم أنه أعمى معطّل اليدين والرجلين ، شنيع الخلقة ، وإذا جادبته أطراف الحديث رأيت منه بحراً زاخراً. وكان بديعاًفي الحساب والفرائض . وردّاً على أبوزيد الفازازي كاتب المأمون حين قال :" الحزم والعزم منسوبان للعرب " قال ابن الصفارمناقضاً لها وضد المأمون بن يحي بن الناصر ومُخَصِمِه على الخلافة :

وإن ينازعْكَ في المنصورّ و نَسَبٍ فنجلُ نوح ثضوَى في قسْمه العطَبِ

وإن يقل أنا عَمٌّ فالجوابُ له عمُّ النبيِّ بلا شكٍّ أَبو لهبِ

وقد تعرض بعد هذه القصيدة للبحث عنه بقصد قتله، ثم فرّ إلى إفريقية في عهد أبي زكريا(60)

10- أحمد بن محمد بن محمد القيسي ، من أهل قرطبة ، سمع من العلماء والأدباء ، ومنهم أبوالوليد هشام بن عبدالله ، وبن بشكوال ، وابن مضاء وأبي العباس المجريطي وغيرهم ، وتصدّر لقراءة القرآن ، والتعليم بالعربية وألّف كتباً منها كتاب (منهاج العباد)، وكتاب: (تفهيم القلوب علاّم أهل الغيوب) و(آيات غلاّم الغيوب)و(مختصر التبصرة لمكي في القراءات) و(كتاب تسديد اللسان ،لذكر أنواع البيان)وغيرها ، سكن بإشبيلية بعد خروجه من قرطبة (ت 643هـ /1245 م) (61).

11- أحمد بن محمد بن عبدالملك الطبيب / وهو قرطبي ، سكن سبتة ثم أقام في إشبيلية وقتاً وكانت له مهارة في علم الطب إلى جانب الحديث والأدب، توفي بمراكش (650 هـ / 1251 م) (62).

12- أبو عمران موسى بن يحي المناصف / من قرطبة وقد تولى دار الأشراف بمراكش ، وهو من شعراء قرطبة المشهورين في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ،ووِصِفَ بحلاوة شعره ومنه قوله في غلام جزّار :

قالت عواذلُهُ لما بَصُرْنَ بِهِ في مجْزَرٍ ساقطَ الأَثوابِ واللِّمِمِ

لشدِّ ماعَرَّض الإعراضَ عاشِقَهُ فأَيْنَ مايدَّعيه الدّضهْرَمنهمَمِ

فقلتُ : صارت هموماً كلها هِمَمِى فما أُفَرِّق بين الرأسِ والقَدمِ

لطَرْفِهِ في فؤادي ما لمُدْيتِهِ فيما تُقَسِّم كَفَّاه على الوَضَمِ (63).

وبعد سرد هذه الثلة من الشخصيات العلمية والأدبية في قرطبة القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، سنتناول بعض هذه العلوم والآداب :

أ – العلماء والفقهاء والأدبـــــاء : من المعلوم أن الحركة العلمية بصورة عامة قد ازدهرت في قرطبة مع الفتح الإسلامي للأندلس ، في العصر الأموي وماتلاه من عصور إسلامية حتى سقوطها في يد الصليبيين الإسبان عام 636 هـــ /1238 م ، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ومركز الآداب ، واصبح اسمها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم والمعرفة ،كما اصبح من معالمها البارزة التي يتفاخر بها أهل قرطبة (64) ،ومما يروى عن قرطبة واشتهارها بالعلوم ما قاله أبو الفضل التيفاشي :"جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبوالوليد بن رُشْد والرئيس أبوبكر بن زُهْـــر في تفضيل قرطبة ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما نقول ، غير أنه إذا مات عالمٌ بإشبيلية، فأُريد بيع متبه حُمِلَتْ إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطربٌ في قرطبة فأُرِيد بيع آلاته حُمِلَتْ إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً"(65)، وقال ابن سعيد :" أن قرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها" (66)، وأما الحجاري فيرى أن قرطبة : وطن أُوْلي العلم والنُّهي ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، ودار حضرة الإمام ..، وأعلامُ العصر وفرسان النظم والنثر ، والتأليفات الرائقة (67) .

لقد اهتم أمراء بني أمية وخلفائهم باقتناء المصنفات النادرة ، وأرسلوا للبحث عنها والتماسها وشرائها الخبراء والمتخصصين ، فأقام المستنصر للعلم والعلماء سلطاناً. وأوفد عليه أبوعلي القالي صاحب كتاب(الأمالي) من بغداد فأكرم مثواه ، واستجلب الكتب من الأقطار ، حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه. واشترى كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب (68) ، فالأمير عبدالرحمن الأوسط يداخل

كلُ ذي علمٍ في فنه كما كان مكرماً للعلماء محسناً لهم ، وكان يشاور كبير الفقهاء يحيى الليثي ، وكان شاعرا وأديباً ذا همة عالية ، عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة.(69) وكذلك كان الحكم المنتصر محباً للعلماء ومكرماً لهم ، وكان يستقدمهم من المشرق ، ويرحّب بهم ويكـرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده تعبيراً عن محبته للعلم والعلماء، وكان من بين علماء المشرق الذين وفدوا إلى قرطبة على أيام أبيه أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي صاحب كتاب الأمالي ، وقد وصل إلى قرطبة في أيام الناصر عام 330هـ/941م، فأمر ابنه الحكم باستقباله عند وصوله الأندلس واصطحابه معه إلى قرطبة تكريماً له واحتفاءً بمقدمه (70) ، ومن المعلوم أن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي على عهد الموحدين ، كان المغرب والأندلس يشكلان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش ، وازدهرت فيها الحياة الفكرية والعلمية ، وظهرت ثلة من كبار الفلاسفة والأطباء أمثال ابن رشد، وابن زهر، وابن الطفيل ، كما ظهر عدد من كبار المؤرخين نذكر منهم :

1- عبد الواحد المراكشي (ت 647 هـ / 1249م): ألف العام 620 هـ / 1224م كتاب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) ، والمقصود بكلمة المغرب هو بلاد المغرب والأندلس معاً ، وهو كتاب يتناول تاريخ الموحدين ، وشمل تاريخ الأندلس

منذ الفتح الإسلامي لها مما أعطى هذا الكتاب قيمة تاريخية وأدبية عظيمة (71) .

1- أبو العباس احمد بن عذاري المراكشي : لا يعرف تاريخ وفاته تحديداً ، لكنه كان حياً عام 712 هـ /1312م ، وهو صاحب كتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، وهو كتاب يحكي تاريخ بلاد المغرب والأندلس منذ الفتح حتى بداية عصر بني مرين(72) .

2- ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد- ت 685 هـ/1274 م):

وهو من أسرة من المؤرخين كتبت تاريخ شامل للأندلس في مدة استغرقت مائة عام . وعنوان الكتاب الذي أكمله هو (المُغرب في حُلي المغرب) ، تناول جزء منه بعض شعراء الأندلس من القرن العاشر إلى الثالث عشر الميلادي(73)

3ـ محمد بن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ / 1304 م) : ألف موسوعة تاريخية : شملت كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، وهما : كتابي تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، وكتاب الصلة لابن بشكوال.(74)

4ـ ابن الأبار (محمد بن عبدالله القضاعي – ت 658 هـ / 1260م): وولد ابن الأبار في مدينة بلنسية بشرق الأندلس عام 595 هـ /1198م ، وعند محاصرة ملك أرجون لبلنسية ، طلب نجدة سلطان تونس أبي زكرياء الحفصي في قصيدته السينية التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل عز النصر منك ملتمسا(75)

ألّف كذلك كتاب (إعتاب الكتاب) ، وكتاب (التكملة لكتاب الصلة)، وكتاب (الحلة السيراء)، وكتاب (المعجم لأصحاب الصدفي).(76)

6ـ **لســـان الدين ابن الخطيب (713 هـ / 1313م -776هـ / 1374 م):**(77) شغف بالعلوم الطبية والفلسفية ، وظهرت براعته في قرض الشعر ، وعلمه الواسع بالأدب العربي وفي هذا يقول :

الطبُ والشعرُ والكتابة سِماتُنا في بني النجابة

وقد تقلّد مناصب كثيرة ، كوزير وعالم ، وأتاح له منصبه كوزير فرصة الاطلاع على الوثائق والمراسلات المحفوظة بقصر الحمراء واستغل مادتها في مؤلفاته التاريخية (78) ، وقد أفجعه رحيل زوجته وأم أولاده التي كانت تقيم معه في بلد الغربة ، وفيها يقول :

رُوِّع بالي وهاج بلبالي وسامني الثكل بعد اقبالي

ذخيرتي حين خانني زمني وعدتي في اشتداد اهوالي

حفرت في داري الضريح لها تعللا بالمحال في الحالِ

إلى أن يقول :

ومهدي لي لديك مضطجعا فعن قريب يكون ترحالي(79)

ومن كتبه : كتاب اللمحة البدرية في الدولة النصرية : وهو عن غرناطة وعادات أهلها وتقاليدهم ، وتاريخ ملوكها ، وكتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : وهو خاص

بحياة ابن الخطيب في المنفى ووصفها ، وكتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار: وهو عبارة عن وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، كتبت بأسلوب فن المقامات في الأدب العربي ، وكتاب الحلل المرموقة في اللمع المنظومة : وهو عبارة عن أرجوزة أو ألفية في أصول الفقه ، وكتاب رقم الحلل في نظم الدول : وهو أرجوزة تاريخية في تاريخ الدول الإسلامية، أهداها للسلطان المريني ، وكتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان : وهو عبارة عن الرسائل السلطانية التي كتبها ابن الخطيب من سلطان غرناطة إلى سلطان فاس[80]

7- عبدالرحمن ابن خلدون (732هـ – 1332م / 808 هـ / 1406 م) : مولده بتونس ، لكن أجداده أندلسيون من إشبيلية ، كان مؤرخاً وعالما ، من مؤلفاته : المقدمة والعبر، التعريف بابن خلدون ورحلاته.[81]

ب – علـــوم الرياضيات والطب والصيدلة : ارتبط علم الطب والصيدلة في العصور الوسطى ارتباطاً وثيقاً بعلوم الرياضيات والفلسفة والفلك والهندسة زمن العصور الوسطى ، وكانت قرطبة مركزاً لدراسات الطب في سائر بلاد الأندلس وفيها ظهر أعظم مجموعـــة من الأطبـــاء والصيادلة ، حيث كان الطب بدئياً قبل الإســـــلام . أما في ظل الحضارة العربية الإسلامية ، فقد ارتقت دراسة الطب ، وتعاقبت خطواته سراعاً ، حتى صار علماً أصيلاً لدى الأطباء العرب والمسلمين ، وظهر عهد جديد ازدهـــر فيه هذا العلم ، ولم يكن في العالم فيما بين منتصف القرن الثامن والخامس عشر الميـــلادي علم طب يعتد به إلاّ ما كان عند العرب والمسلمين ، ونبغ في هذا العلم مشاهير منهـم:

ـ أبوبكر الـــــرازي (ت320هـــ /932م): يعتبر من أعظم أطباء العصور الوســـطى ، ذُكِر أنه أول من استخدم أمعاء القطط في خياطة الجروح ، وأول من استخدم الزئبق في المراهم ، ومن مؤلفاته كتابه (الحاوي) ، وهو أضخم كتاب في الطب خلال العصور الوسطى ، ضم أكثر من (22) جزءاً، اعتمد عليه الأوربيين حتى القرن السابع عشر ميلادي، إلى جانب الاكتشاف السكري وغيره [82] .

ـ **أبوالقاســـم الزّهـــراوي** (ت404 هـــ /1013م): كان من أعظم أطباء الجراحة في إيبيريا (الأندلس) ، وهو أول من عالج النزف بربط الشرايين ، وأول من تعامل مع حصى المثانة واستخراجها بعملية جراحية ، وأول من عالج الشلل ، واستخدم خيوط الحرير، وألف كتاب(التصريف)[83].

ـ **ابن سينا** (ت 429 هـ /1037 م) : من أعظم أطباء عصره ، كانت له عدة تآليف في الطب أهمها كتابه (القانون في الطب) شرح فيه وظائف الأعضاء وطرق علاجها وظل يدرّس في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي كما ألف أرجوزة في الطب حوي 1316بيتاً[84].

ـ **ابن زُهـــــر الأشبيلي** (ت 486 هـ /1093 م) : عالج أمراض الجهاز الهضمـــي ، وأوضح الفرق بين البهق والجدام ،كما كانت له أول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي ، واستعمال الحقن المغذّية ، واكتشاف طفيلية الجرب [85]، الذين بدورهم ألفـــوا مدرسة في علم الطب والعقاقير الطبية ، وبرع كثير منهم في الصيدلة مثل: الرازي والزهـراوي وابن سينا وابن البيطار الذي ألف كتباً في علم الأدوية مثل كتاب (المعنى في الأدوية المركّبة) ،وكتاب(الجامع لمفردات الأدوية والأغدية)[86] كما تقدم الطب كثيراً على عهد الأمير محمد بن أحمد بن إياس القرطبي[87].

ومن المفيد قوله أن أهل الأندلس منذ بدايات الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الأول أو الداخل (مؤسس الدولة) يعتمدون في الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الإبرشيم ، لكن مع ظهور هذه الدولة في الأندلس ،ازدهر الطب والصيدلة في قرطبة ازدهاراً كبير ، وقد دعا الحكم المستنصر إلى إنشاء ديوان الأطباء ، يتم فيه اعتماد اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ويزاولها ، مقابل العقاب في حال ارتكابه خطأ طبي ويسقط اسمه من الديوان ، مثال ذلك ما حدث للطبيب أحمد بن حفصون.[88]

ولو رجعنا إلى أزمنة غابرة لوجدنا من ضمن قوانين " حمورابي" ما يشير إلى بعض العقوبات التي توقع ضد الأخطاء التي يرتكبها الأطباء في مختلف التخصصات مثل : العيون والأسنان والجراحة والبيطرة [89]

أما في الرياضيات فقد اهتم العرب والمسلمين بالعلوم الرياضية منذ أقدم العصور ، وزاد ذلك الاهتمام مع ظهور الإسلام لمقتضيات الفترة ومعرفة مواقيت الصلاة وبداية شهر رمضان ، وتقسيم الميراث وغيرها ، واستخدم العرب الطريقة الحسابية أولاً والطريقة الثانية التي تسمى : "الغبار" وهي الكتابة على لوحة رملية وكان انتشارها في المغرب وشبه جزيرة أيبيريا، ومن هناك انتقلت إلى أوربا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وكانت هذه الفكرة مبنية على فكرة الزوايا الخاصة بكل رقم ، وقد خضعت لتعديلات كثيرة إلى أن وصلت لشكلها الحالي ، كما أنه يعود للعرب في

حقل الرياضيات ، توصلهم إلى النظام العشري ، واستخدام الصفر(90) ، ويدين علم الجبر باسمه إلى العرب والمسلمين ، وقد دُوِنت أصول هذا العلم في كتاب الخوارزمي " الجبر والمقابلة " توصل فيه إلى حل الكثير من المعادلات القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي، إلى جانب جداول لحساب المثلثات ، كما كان الفضل لثابت ابن قرة الفضل في ابتداع علم التفاضل والتكامل، وجمع علماء العرب والمسلمين بين الهندسة والجبر وألفوا عديد الكتب في المساحات والمثلثات والحجوم، وتقسيم الزوايا وغيرها من العلوم الرياضية (91).

ج- الجانب الأدبي :

ج- **فـــن الموشّـــحات :** فــن الموشحات نوع من أنواع الشعر نشأ في الأندلس، وفيه يقول المؤرخ ابن خلدون :" وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، بلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، وينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً....."(92)، وهذا الفن الشعري ، الغنائي في الأندلس ، اخترعه (مقدم بن معافر القبريري) ، وهو من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني (93) ، كما أخذ ذلك عنه ابن عبدربه صاحب كتاب (العقد الفريد) ، وكانت له أوزان ، وأكثر ما تنتهي عندهم تلك الأغصان إلى سبعة أبيات ، ثم برع بعدهما (عبادة القزاز) شاعر المعتمد بن صمادح صاحب المرية ،وكان من بين البارزين في هذا الفن كذلك ،ابن رافع ،رأس شعراء المأمون بنّ ي النون ،صاحب طليطلة حيث يقول :

العود قد ترنم بأبدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين(94)

ثم جاءت دولة المرابطين ، فظهر في عهدهم من الموشحين أمثال الأعمى الطليطلي ، وابن بقي وغيرهما كأبي بكر الأبيض وأبي بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة – انتشر هذا الفن الشعري في كافة أنحاء الأندلس ، وننتقل منها إلى إفريقية ، وعُــرِفَ بالمألوف (95) بها منذ بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وكان شأنه شأن الخط الأندلسي الذي انتشر في إفريقية وعفى على الخط الإفريقي. ونتناول من المألوف ، بعض ما قاله الوزير أبوعبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب في عصره حيث قال :

" جادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ همـى
يا زَمَانَ الوَصْلِ بالأندَلُسِ!
لم يَكُنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلُما
في الكَرَى أو خلسَةَ المُخْتَلِسِ(96).

وقول أبوبكر بن قزمان القرطبي الدار، عند اجتماع جماعة من الأعلام وركوبهم النهر، ومعهم غلام جميل الصورة :

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو وقد ضمّني عشقو لشهماتو
تراه قد حصل مسكين محلاتو يغلق وكذاك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل إن غابو وذيك الجفون الكحل أبلاتو (97)

هـذه الطريقة الزجلية أو شعر العامة بالأندلس ، نظموا بها في سائر البحور الخمسة عشر ، ومنها :

دهر لي نعشق جفونك وسنين وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع صنعة السِّكة بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب والمطارق من شمالاً ومن يمين(98)

هذه نماذج فقط من هذا النوع من الشعر (فن الموشحات)الأندلسي .

المبحث الثالث ـ المؤسسات الثقافية في قرطبـــة :

كانت قرطبة حاضرة الدولة الإسلامية بالأندلس (99) ومركز العلم ومحل تعظيم للعلماء والأدباء من قِبل ملوكها (100) ومن المؤكد بأن الاهتمام بالعلوم في الأندلس ، لم يكن وليد القرن السابع الهجري / الثلث عشـــر الميلادي؛ بل سبق ذلك الزمن بكثير منذ الفتوح الإسلامية للأندلس، ويقول المقري نقلاً عن صاحب الفرحة :" وأهل الأندلس لهم عناية بالعلوم "(101) ؛ فقد تم الاهتمام بالعلوم كغيرها من الفنون والآداب، وزاد من ذلك اهتمام الأمراء ، والملوك في الأندلس فتكوّنت مراكز ثقافية متعددة وأهم هذه المركز هي :

1ـ المساجـــد : من المفيد قوله أن المساجد كانت أولى المؤسسات التعليمية لتدريس النشء، فقد كانت تدرس العلوم القرآنية إلى جانب العلوم الإنسانية الأخـــرى واللغوية، لذلك كان تركيز المؤرخين على الآثار الإسلامية الباقية والتي كان أهمها المسجد الجامع بقرطبة ، الذي كتب عنه جل المؤرخين العرب في المغرب والأندلس وتناولوه بالوصف الدقيـــق (102) ، ومن المعلوم بأن عبد الرحمن الداخل هو أول من قام ببناء هذا المسجد

، الذي مزال إلى الآن يمثل قمة المعمار الديني في الأندلس واهتمام المسلمين بالبنايات الدينية المتمثلة في المساجد ، كما اهتم الأمير عبدالرحمن الأوسط أو الثاني بالمسجد الجامع بقرطبة ، فقد زاد فيه زيادة كبيرة من ناحية المحراب جنوباً، وقد بلغ طول هذه الزيادة حسب المؤرخين في ذلك العصر خمسين دراعاً، وعرضها مائة وخمسين دراعاً ، وعدد سواريها ثمانين سارية . ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة عام 234هـ /848م [103]، وفي وصفه يقول الحميري :" وبها الجامع المشهور أمره الشائع ذكره ،من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام صنعة وجمال هيئة واتقان بنية ،تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة .....، حتى بلغ الغاية في الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف ،و ليس لمساجد المسلمين مثله تنميقاً "[104] .

ويعتبر المسجد الجامع بقرطبة أروع أمثلة العمارة الدينية الإسلامية في العصور الوسطى، حيث احتوى على واحـد وعشرون باباً مطلية بالنحاس الأصفر اللمّاع ، كما زُيْن محرابه بالفضة والفسيفساء ، أما المنبر فقد صنع من العاج تعظيماً له[105] ، وفي سقفه ضروب الصنائع والنقوش، وكان الإبداع في تشكيل ألوانه بين الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل [106] ، إلى جانب القبلة التي يعجز عن وصفها من الإتقان والتنميق، ناهيك الرخام والفسيفساء المذهب ووصف المحراب وبيت المؤذن ، والوصف لهذا المسجد يطول كما ذكر الحميري[107] .

هذا إلى جانب مساجد أخرى في قرطبة مثل مسجد طروب، ومسجد الشفاء ، وغيرهم [108]، وقد ذكر الحميري أن المساجد في قرطبة كانت أربعمائة واحد وتسعون مسجداً[109] ، وكان هذا الجامع بقرطبة هو الأساس للتنظيم العمراني والمعماري للمدينة والمركز الديني الأساسي الذي التفت حوله بقية مراكزها العمرانية [110] .

2- المـدارس : وهي الأماكن التي كانت تقوم بتدريس الصبية العلوم الدينية و الدنيوية، ومن بينها مسجد قرطبة ، وقد مثّل أحد أهم المراكز العلمية في قرطبة ، فقد احتوت مكتبته على عدد كبير من الكتب جُلِبتْ إليه من اليونان وغيرها بعد أن تمت ترجمتها إلى اللغة العربية ، وكما تذكر بعض المصادر التاريخية أن مجلدات مكتبة قرطبة أو مكتبة الزهراء كما كانت تعرف في ذلك الوقت ، بلغ أكثر من أربعمائة مجلد ، وكانت كما يُقال على قدر كبير من التنظيم [111] ، وفيما يتعلق بالعلوم ، وهي التي استؤنفت في عهد الموحدين ،فقد كانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية

ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ؛ وكان على رأس هذه المعاهد علماء ، كان منهم بعض اليهود الذين برعوا في بعض العلوم في ظل الموحدين خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ؛وكانت هذه المعاهد تقدم للطلاب كتباً دراسية في كل العلوم ؛ ويؤدي الطلبة بعد إتمام الدراسة امتحانات في هذه العلوم التي أخذوها(112) ؛ لكن يبقى رغم تلك المعاهد ما مثّله المسجد الكبير من أنه جسد أكبر تلك المعاهد العلمية على الإطلاق في قرطبة، وكان القائم بالتدريس فيه كما أسلفت القول علماء وفقهاء ، وزاد من روعته مشاهدة عشـــرات الطلاب بل المئات يهرعون لحضور الدروس والمحاضرات عبر أبوابه الإحدى وعشرون بابا من مدن مختلفة ويكـوّنون حلقات حول أساتذتهم (113) ، ومن الأمثلة على عـدد الطلاب وليس حصراً حيث كان العالم ابن عائد الطرطوســي ممن كان له دور في التدريس في هذا المسجد وقد تميز بصوته مما جعل ألف طالب يتحلقون حوله

يودّون سماع درسه والاستفادة منه (114)

نتائج الدراســــــــة:

نستخلص من هذه الدراسة التاريخية لقرطبة ودورها في الحركة العلمية والفكرية في الأندلس إلى :

1ـ أن مدينة قرطبة الإسبانية قد كانت حاضرة الدولة الإسلامية في الأندلس علمياً وثقافياً.

2ـ بروز شخصيات إسلامية في شتى العلوم والفنون في قرطبة وكانوا الأساس في تلك النهضة بها.

3ـ ظهور عديد المؤسسات العلمية والتعليمية والثقافية.

4ـ بناء المسجد الكبير بقرطبة ودوره الريادي في العلم والتعلم والتعليم وتخريجه لعدد كبير من العلماء والأدباء

الهوامـــــــــــــش :

1 - سورة العلق – آية رقم (1).
2 - سورة الزمر- آية رقم (10).
3- سورة فاطر – آية رقم (28).
4 - الحميري ، محمد عبدالمنعم ، الروض المعطار ، تح- إحسان عباس ،مكتبة لبنان –ط2 /1984م ، مادة قرطبة ، ص 456.
5- الحميري ، المصدر السابق ، ص 458 .
6 - المقري ج2 ، مصدر سابق ، ص 11.
7 - المصدر نفسه ، ص 458؛ السيد ،عبد العزيز ، مرجع سابق ، ص35 .
8 - المقري ، محمد بن أحمد ، نفح الطيب ج1 ، تح ، مريم قاسم طويل وأخر ، دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان ، ط1995،1، ص 213.
9- المقري ، المصدر السابق ،ج4 ، ص189.
10 - المراكشي ، عبدالواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان /1998م ، ص 269.
11- المراكشي ، المصدر السابق ،ص 269 ، المقري ج4 ، مصدر سابق ، ص 190.
12- المقري ج2 ،مصدر سابق ، ص 6.
13 - المقري –ج1 ، مصدر سابق ، ص 153.
14- المصدر السابق ، نفح الطيب ج2 ، ص 7.
15- المصدر نفسه –ج1، ص 154.
16 - المصدر نفسه ج1، ص 152 -153.
17 - المصدر نفسه –ج1 ، ص142 -143 ؛ عباس ، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي ، دار الثقافة –بيروت – لبنان / 1975م ،19 .
18 - ابن سعيد ، علي بن موسى ، المغرب في حلي المغرب - ج1، دار المعارف –مصر /1953م ، ص من 38 إلى 234.
19- الحميري ، الروض المعطار، مصدر سابق ،ص 456.
20 - المقري –ج4، مصدر سابق ، ص191.
21- المصدر نفسه، ص191.
22 - المصدر نفسه، ص190 .
23- المصدر نفسه ، ص190
24 - المقري- ج1، مصدر سابق ، ص 152.
25- أبوبكر بن القبطرنة : هو الوزير عبدالعزيز بن سعيد بن عبدالعزيز ، من بطليوس ، وأحد فرسان الكلام/ المقري – ج1، هامش ص 155.
26 - أبو الحسين بن سراج : هو الوزير سراج بن عبدالملك بن سراج؛ عال الأندلس في النحو والصرف / المقري –ج1، هامش ص 155.
27 - المقري –ج1 ، مصدر سابق ، ص 155.
28 - المصدر السابق- ج1 ، ص152.

29 - سالم ، السيد عبدالعزيز ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، دار النهضة العربية – بيروت –لبنان /1969م ، ص160.
30 - المرجع نفسه ، ص169.
31 - هونكة ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، تر / فاروق بيضون وأخر ، منشورات الكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان /1969م ، ص531.
32 - مقالة راغب السرحان (قرطبة دار العلوم) Google 27-3-2024.
33- سالم، السيد عبدالعزيز ، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، جامعة الأسكندرية /1984،ص 38.
34 - المرجع السابق ،ص 30 .
35- الحميري، محمد عبد المنعم ، صفة جزيرة الأندلس ، القاهرة /1937م ، ص53.
36- القلقشندي، أحمد بن علي ، صبح الأعشى –ج5، دار الكتب العلمية –بيروت- لبنان ، ط1 /1987م ، ص 219.
37 - المصدر نفسه ، ص 219.
38- المقري ، نفح الطيب ج2 ، مصدر سابق ، ص 6 ؛حسن ، إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام – السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج34، دارالجيل بيروت / مكتبة النهضة المصرية ،ط15 /2001م ، ص 425.
39- المرجع السابق ، ص 424.
40- المقري –ج2 ، مصدر سابق ، ص 64؛ حسن ، إبراهيم حسن ج3 ، مرجع سابق ، ص 424 – 425
41 - المصدر السابق ج2 ، ص65 ، المقري ، احمد بن محمد ، ازهار الرياض في أخبار عياض –ج2،تح- مصطفى السّقا وآخران ، القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة /1940 م ، ص 267 -268، ابن خلدون ، عبدالرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4،دار إحياء التراث العربي – بيروت - لبنان، ط1 / 1999م ، ص 148 -149.
42 - المصدر السابق –ج2 ، ص 66 .
43 - السميسر : هو أبوالقاسم بن خلف الألبيري ؛ من أعلام شعراء البيرة / سعيد ، علي بن موسى ،تح - ضيف ، شوقي، المُغرب في حُلَى المغرب-ج2، دار المعارف – القاهرة / 1980م ، ص 100.
44 - المقري –ج2 ، مصدر سابق ، ص67.
45 - العبادي ، أحمد مختار ،في التاريخ العباسي والأندلسي ، دار النهضة العربية –بيروت –لبنان /1972م ، ص 417.
46 - المرجع السابق ، ص 418 .
47 - المصدر نفسه-ج2 ، ص 114 -115 .
48 - المصدر نفسه-ج2 ، ص115 ؛ حسن ، إبراهيم ، تاريخ الإسلام –ج3 ، مرجع سابق ، ص 429.
49 - المصدر السابق ، ص116.
50- المقري –ج2 ، المصدر السابق ،ص 116 – 117 .
51 - المقري ، نفح الطيب- ج 4 ، مصدر سابق ، ص 189.
52 - ابن الأبار ، ابوعبدالله محمد، التكملة لكتاب الصلة ، تح- إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المغربي ، ط1 /1989م ، ص 137، ابن سعيد المغرب –ج1 ، مصدر سابق ، ص 220.
53 - ابن سعيد –ج1 ،المصدر السابق ، ص 136 ، التجيبي ، أبوبحر صفوان ، زاد المسافر في محيا الأدب السافر ، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان / 1980 ، ص62.
54- ابن الأبار ، التكملة ، مصدر سابق ، ص150 .

55 - التجيبي، زاد المسافر ، مصدر سابق ، ص 104، ابن سعيد –ج1 ، مصدر سابق ،ص 75.
56 - ابن الأبار ، التكملة ، مصدر سابق ،ص 152 – 153.
57 - المصدر السابق ، ص 217 .
58- المصرد السابق ، ص 217 -218 .
59 - ابن سعيد-ج1 ، مصدر سابق ، ص 74.
60 - ابن سعيد ، المغرب ج1، مصدر سابق ، ص117 -119 .
61 - ابن الأبار، التكملة ، مصدر سابق ، ص 161.
62 - المصدر السابق ، ص 168.
63- ابن سعيد- ج1، مصدر سابق ، ص 107.
64 - سالم ، السيد عبدالعزيز، قرطبة حاضرة الخلافة، ج2 ، دار النهضة العربية ، بيروت – لبنان /1972م ، ص 159 .
65 - المقري ، نفح الطيب ج1 ،مصدر سابق ، ص 154.
66 - المقري ، نفح الطيب ج2 ، مصدر سابق ، ص 3.
67- المصدر نفسه ، ج2، ص 8.
68 - ابن خلدون ، العبر ج4 ، مصدر سابق ، ص 151.
69- ابن خلدون ، العبر ج4، مصدر سابق ، ص 135.
70 - المقري ، نفح الطيب ج1 ، مصدر سابق ، ص 353؛ سالم ، السيد عبدالعزيز ،مرجع سابق ، ص343.
71 - العبادي، أحمد مختار ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت – لبنان / ب- ت، ص 330.
72 - المرجع السابق ، ص 330.
73- المرجع نفسه ، ص 331- 332.
74- المرجع نفسه ،ص 332 -333.
75 - عنان ، محمد عبدالله ، دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ط4 / 1987م ،ص 37.
76 - العبادي ، مرجع سابق ، ص 334 -335.
77 - أشباخ ، يوسف ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين- ج2، مكتبة الخانجي –القاهرة ،ط2 /1996م ، ص 262- 263.
78 - العبادي ، مرجع سابق ، ص336 -337.
79 - المرجع السابق ، ص 338 .
80 - المرجع السابق ، ص 339 -340 .
81 - المرجع السابق ، ص345 – 346 .
82 - الأسطى ، المبروك غنية وأخر ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مطابع الثورة العربية طرابلس / 1989م ، ص 171.
83- الرجع السبق ، ص171.
84 - المرجع السابق ، ص 171.
85 - ابن خلدون، العبرج1 ، مصدر سابق ،493؛ المرجع السابق ، ص171.
86 - المرجع السابق ، ص 171.
87- البكري ، معجم ما أستعجم –ج1، تح – مصطفى السقا ،القاهرة /1945م ، ص 206.

88 - السيد ، فؤاد ، طبقات الأطباء والحكماء، القاهرة /1955م ، ص 208.
89 - قديدة ، رمضان أحمد وأخر ،تاريخ الوطن العربي وحضارته في العصور القديمة ، مطابع الثورة العربية ، ب-ت ، ص 117 .
90 - الأسطى ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 175 – 176.
91 - المرجع السابق ، ص176.
92 - ابن خلدون ، عبدالرحمن ،المقدمة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط1 /1993م ، ص509.
93- المصدر السابق ، ص 509.
94 - المصدر السابق ، ص 510 .
95- المصدر السابق ، من ص 509 إلى ص 526؛الطالبي ، محمد دراسات في إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ، منشورات الجامعة التونسية /1982 ،ص 196.
96 - ابن خلدون ، المقدمة ، مصدر سابق ، ص515.
97 - المصدر السابق، ص 519.
98 - المصدر نفسه ، ص 521.
99 - القرطاجني، أبوالحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح- محمد الحبيب الخوجة ، دار الغرب الإسلامي –بيروت –لبنان 1986م، ص96، ابن خلدون ، العبر ج6، مصدر سابق، ص283.
100 - المقري ، نفح الطيب ج4، مصدر سابق ، ص 189.
101 - المقري، نفح الطيب ج4 ، مصدر سابق ، ص133- 134.
102- سالم ، السيد عبدالعزيز ، المساجد والقصور في قرطبة ، مؤسسة شباب الجامعة – القاهرة /1986م، ص 8.
103- العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص 151.
104- الحميري ، الروض المعطار ، مصدر سابق ، ص 456.
105- الأسطى ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الدار العربية للكتاب –طرابلس /1992- 1993،ص 106.
106- الحميري، الروض المعطار ، مصدر سابق ، ص 457.
107- المصدر السابق ، ص 457.(مادة قرطبة).
108- العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق، ص 151.
109- الحميري ، الروض المعطار ، مصدر سابق ، ص 458.
110- الأسطى ، مرجع سابق ، ص 40.
111- دياب ، مفتاح محمد ،مقدمة تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، الهيئة القومية للبحث العلمي /1990م ،ص 115.
112- أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، مرجع سابق ، ص 255.
113- سالم، السيد عبد العزيز ، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، مرجع سابق ، ص36.
114- دياب ، مقدمة تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص116.